# الأدب الفنلندى

للأستاذ صديق شيبوب

بينما تتجه أنظار العالم إلى فنلندة بمناسبة الحرب الناشبة التى تخوض غمارها فى جرأة وهدوء، جرى حادث أدبى نبه الأذهان إلى آداب هذه الأمة الباسلة، فقد فاز الأديب الفنلندى سيلانبا Sillanpaa بجائزة نوبل التى يطمح إلى نيلها كبار الأدباء وعظماؤهم لأنها ذات خطر عالى.

وقد كان هذا الحادث الأخير مفاجأة لجمهور الأدباء والمتأدبين فى العالمين القديم والجديد، لأن الفكرة التى كانت شائعة عن الفنلنديين تتركز فى ولعهم بالألعاب الرياضية وتفوقهم فيها، إذ كانوا يشتركون فى الألعاب الأولمبية التى تقام فى شتى بلدان العالم فيفوز لاعبوهم بأكثر من بطولة.

وقد رأينا — لهذه المناسبة — أن نلم بالأدب الفنلندى لبيان تاريخه ومناحيه.

* * *

ينطبع الأدب الفنلندى بطبيعة البلاد التى نشأ فيها وبأخلاق سكانها. وفنلندا قائمة فى الشمال الأقصى من أوربا، ذات غابات كثيفة وبحيرات عديدة، شتاؤها طويل، وصيفها نهار دائم. يسكنها شعب قاسى طول تاريخه أهوال البرد والجوع والحروب، فاكتسب مما قاساه صلابة وقوة، ومن طول الشتاء ميلاً إلى الخيال والأحلام. فلا عجب إذا اختلف فى طبيعته عن الشعوب اللاتينية وعن الشعوب الجرمانية التى يمت إليها فى أصله، وإذا ظهر أدبه فى شكل يلائم أحواله وبيئته.

إنه يبحث فى الأدب والفنون عن وسائل للتعبير عما يجول فى نفسه تختلف عن وسائل الأمم الأخرى. وقد تظهر هذه الوسائل غريبة عجيبة، أو على الأقل غير منتظرة لشعوب تعودت دقة التعبير ووضوحه، وهما من ميزات شعوب البحر الأبيض المتوسط.

والأمم الغربية قد تأثرت بثقافة فكرية وفلسفية واحدة، غير أن المناحى الثقافية اضطرت أن تتأقلم وفاقاً لطبيعة كل إقليم، فظهرت فى شكل يوافق كل بلد، وبدت كأنها تختلف عما هى فى البلاد الأخرى.

لذلك نجد الأدب الفنلندى يعبر عن أخلاق سكان هذا الإقليم وما تتميز به من رجولة بارزة، وخيال واسع ذى ميول إلى الكآبة والحزن، وسذاجة القلب والطبع، كما يعبر عن طبيعة البلاد القاسية فيظهر فى أسلوبه كأنه قبس مستمد منها، فضلاً عن عناية أدبائه بوصف هذه الطبيعة وقواها وعناصرها

كان قدماء الفنلنديين يعيشون بين أحضان الطبيعة القاسية، فلا عجب إذا رأيناهم، فى عصرهم الوثنى، يؤلهون عناصرها ومظاهرها. وقد استدل الباحثون من الأناشيد التى ترجع إلى ذلك العهد، على أنهم كانوا يصفون بالألوهية كل شجرة أو صخرة، ويعتقدون أن الغابات والبحيرات مأوى للآلهة. وسنعود إلى هذه الاعتقادات فى معرض كلامنا عن ملحمة « كاليفالا » Kalevala

وقد ظل الفنلنديون يدينون بالوثنية إلى القرن الثانى عشر، أى إلى أن بشرهم الأسوجيون بالنصرانية. ولكنهم ما زالوا إلى اليوم متأثرين بتاريخهم وعقائدهم القديمة. ولما شع عصر الإصلاح فى أوربا تأثر به الفنلنديون فى أوائل القرن السادس عشر، فصدفوا عن التصوف الذى تميزوا به من قبل وأخذوا بتحكيم عقولهم فى أمور الدين المسيحى وتفسير كتبه

مر قرنان بعد ذلك، وجاء القرن التاسع عشر، والأدب الفنلندى فى سبات عميق لا يظهر له أثر. ولعل ذلك يعزى إلى أن دولة أسوج التى استولت على فنلندا منذ القرن الثانى عشر نشرت فيها لغتها حتى طغت على لغة أهل البلاد الأصيلة وكادت تزيلها من الوجود لولا أن القبائل المنتشرة فى مقاطعة « كاربلى » Carélie احتفظت باللغة الفنلندية ونظمت فيها أغانيها الشعبية فى تمجيد أبطالها ووصف شجاعتهم وحروبهم

وظلت فنلندا محتفظة بتقاليدها وبتأثرها بالأدب الأسوجى بالرغم من استيلاء روسيا عليها سنة ١٨٠٩ وضمها إلى امبراطوريتها. ولكن الروابط الأدبية والثقافية بين روسيا وفنلندا جاءت على عكس الروابط السياسية. فكلما حاولت روسيا ربط الصلات السياسية والإدارية بينها وبين دوقية فنلندا الكبيرة ازداد الفنلنديون شعوراً بقوميتهم وتعلقاً بحدتيهم. وهكذا أخذ الأدب الفنلندى يزدهر فى أوائل القرن الماضى ولم يلبث أن ارتبط بالحركة الابتداعية

التى كانت قائمة فى أوربا فى ذلك العهد

* * *

كانت العناية بجمع الأغانى والقصائد الوطنية الحماسية وضمها فى شكل ملحمة أول مظهر للأدب الفنلندى

كان الشعب يحفظ هذه القصائد ويتناقلها بطريق الرواية ، وكان لزاماً على من يعنى بجمعها أن يطوف بالبلاد للبحث عن رواتها ونقلها عنهم

وقد قام « لياس لونرو » Llias Lönnrot بهذه الرحلات لجمع ما استطاع جمعه من تلك الأناشيد الوطنية . وكان يعتقد أن هذه القصائد الشتيتة أجزاء متناثرة من ملحمة شعبية مفقودة زالت لحمتها خلال القرون المتتالية . ويقول النقاد إن هذا الاعتقاد خاطئ ، ولكنه نتج عنه عمل يعد نسيج وحده فى الأدب العالمى: ذلك أن « لونرو » كان شاعراً ، وقد ساعدته هذه الميزة على ضم القصائد وإنشاء لحمة بينها حتى برزت فى شكل ملحمة قد لا يجد فيها بعض النقاد الشروط الفنية لنظم الملاحم كما يجدونها فى الألياذة مثلاً ، ولكن الذين يوجهون إليها هذا النقد يقررون أنها فريدة فى بابها من حيث أنها الملحمة الوحيدة التى اشترك فى وضعها جمهور الشعب .

أما القصص المروية فى هذه الملحمة ، التى أسماها جامعها « كاليفالا » فساذجة بسيطة . كان الشعب الفنلندى وثنياً يؤمن بالرقى والتمائم ويعتقد أن الطبيعة ملأى بالجن ، بعضهم للخير وبعضهم للشر ، وأن الجن لا يتداخلون فى شئون العالم إلا إذا طلب إليهم السحرة ذلك . فالسحرة هم بمنزلة الكهان يحفظون عبارات الطلاسم العجيبة التى يستطيعون بها أن يتحدثوا إلى الشياطين لاجتناب أذاهم أو اجتلاب خيرهم . وهكذا جعلت هذه الديانة الساحر شخصاً علياً بكل شئون الحياة ، فهو الحكيم العليم ببواطن الأمور ، وهو الطبيب الشافى من كل داء ، وهو الشاعر المنشد والمغنى المطرب . ويظهر أن الشاعرية عند هذا الشعب قد تفتقت من ألفاظ السحر الغريبة

وهذه السذاجة فى العقيدة لم تساعد على خلق ميثولوجية على الطريقة الرمزية المعروفة عند الشعوب الأخرى حيث يجد العقل المفكر يخلق الآلهة التى ترمز إلى الحياة بأكلها . أما عند الفنلنديين فالحالة على غير هذا ، لأن الباحث فى ديانتهم يجد آلهة لا يفهم معنى وجودها أو ما ترمز إليه . ولم تحتفظ ملحمة « كاليفالا » بما يستدل منه على الرمز الذى تعبر عنه الآلهة . فمن أمثلة ذلك خلو الملحمة مما يشير إلى مركز « فانيا موين » بين الآلهة ، ويقول الباحثون إنه كان إله البحر فى ديانة الفنلنديين القديمة

ولعل السذاجة فى الدين هى التى جعلت هذا الشعب ساذجاً فى قصصه، لأن ما ترويه ملحمته الطويلة ليس سوى حكايات أطفال وهو وجه الغرابة فيها ، وهو أيضاً ما يجعلها فى أكثر الأحيان عذبة جذابة . إن الأطفال إذا وضعوا قصة جاءت لا رأس لها ولا ذنب ، كما يقولون ، أو لا أول لها ولا آخر ، لأنها تعتمد على المفاجآت الغريبة والأعمال العجيبة أكثر مما ترمى إلى أى غرض آخر . ويظهر أن خيال الشعوب فى عصرها البدائى لا يختلف عن خيال الأطفال الصغار .

وهناك ظاهرة أخرى تجعل ملحمة « كاليفالا » تختلف عن غيرها من الملاحم . ذلك أن الملاحم القديمة كالإلياذة والأوديسة وغيرهما ترمى إلى غايات مقررة لأنها وليدة مدنية قائمة، بينما لا نجد فى الملحمة الفنلندية شيئاً مثل هذا ، لأن قصصها وليدة خيال ساذج جامح ، بحيث نبحث فيها عبثاً عن رمز للناس والأشياء والآلهة والديانة والأخلاق

على أن أجزاء من هذه الملحمة تحوى اعتقادات الشعب الفنلندى وتصف العواطف الأصلية فى قلب الإنسان

وقصة الخليقة كما جاءت فيها قطعة لها نضارة الشباب وسذاجة القلوب الطاهرة ، وهى تصف فى مستهلها العذراء « إيلماتار » إلهة الهواء التى تزوجت من الموجة وظلت تتقاذفها الأمواج فى وسط المحيط المظلم حتى جرى ما يأتى مما ننقله عن الترجمة الفرنسية :

« جاء طائر جميل من نوع البط فطار محلقاً باحثاً عن موضع لبينى فيه عشه ... فطار شرقاً وغرباً ، وطار جنوباً وشمالاً ، فلم يعثر على موضع يبنى فيه عشه الصغير ومسكنه الجميل

طار طويلاً محلقاً فى الفضاء يفكر قائلاً : « ترى هل أضع عشى على متن الهواء، أم أبنى بيتى على صفحة الماء، فيذرو الهواء عشى ، وتتقاذف الأمواج بيتى

« عندئذ أخرجت عذراء الهواء وأم الأمواج الجميلة من الخضم الواسع ركبتها متيحة بذلك مكاناً للعصفور ليبنى فيه عشه العزيز

« كان العصفور الجميل لا يزال محلقاً فرأى ركبة العذراء قائمة على صفحات المياه الزرقاء كأنها قطعة أرض معشبة

« نخفف من طيرانه ، وحط على الركبة فبنى عشه ، ووضع فيه بيضه ، وكانت ست منها ذهباً وواحدة حديداً

« وأقام الطائر على البيض يحضنه للتفريخ حتى وصلت الحرارة إلى ركبة الإلهة ، حضن العصفور بيضه يوماً ، ويوماً آخر ، وفى اليوم الثالث شعرت عذراء الهواء وأم الأمواج الجميلة بحرارة حتى ظنت أن ركبتها تحترق وأن جسمها يذوب

« فنفضت ركبتها ومدت رجلها فجأة فهوى البيض فى اليم وغاص فى جوف الخضم وتكسر

« ولكن البيض لم يصل إلى قعر البحر ، ولم يبق فى جوفه ، لأن كل جزء منها تحول إلى أشياء نافعة صالحة ، تحول أسفل قشرة البيض إلى الأرض وأعلاها إلى قبة السماء ، وصار ما يعلو الصفار الشمس الساطعة ، وما يعلو المح القمر المنير ، وانتثرت قطع صغيرة من القشر نجوماً ترصع السماء ... »

يقول بعض النقاد إن فى هذه القصة إبهاماً كثيراً ، لأنه لا يفهم جيداً ما ترمز إليه الأشياء المذكورة فيها ، فلماذا اختير طير البط؟ ولماذا جعل عدد بيضه ستاً ذهباً وواحدة حديداً؟ ولعلها كانت وسيلة لخلق صور جديدة ، وهى على كل حال صور خلابة ساحرة

إذا تناولت ملحمة « كاليفالا » موضوعاً يمت إلى العواطف الإنسانية كانت مثيرة مشجية . من ذلك قصة الأم التى فقدت ولدها فسارت فى الأرض باحثة عنه حتى وجدته مجندلاً ، فنفخت فيه حياة جديدة ؛ وهى ترمز إلى الأمومة بطريقة شعرية بسيطة . أنظر كيف أخذت الأم تبحث عن ابنها :

« بحثت الأم عن الضائع ، ونادت ابنها المفقود ، فاجتازت المستنقعات كما تجتازها الذيبة واخترقت البحار كما تخترقها الأسماك وطافت بين الحقول والشواطىء وبحثت بين الأشجار ثم نبشت الأرض لتنظر ما تحت الطرق وجذوع الأشجار

« بحثت طويلاً عن ولدها ، بحثت طويلاً وتحدثت إلى الأشجار لتسألها عن المفقود ، فاضطربت شجرة الصنوبر ، وقالت شجرة السنديان : إن لدى من الهموم ما يلهينى عن ابنك ، خلقت لمصير قاس واحتمال أيام مؤلمة ، خلقت لوقيد النار أو بناء الأهراء

« بحثت طويلاً عن ولدها ، بحثت طويلاً فلم تهتد إليه . وتقدم الطريق إليها فانحنت أمامه وقالت له : أيها الطريق العزيز الذى عبَّده الله ، ألم ترابنى ، تفاحتى الذهبية ، عصاى الفضية الصلبة؟

« فأخذ الطريق يتكلم ، وهذه هى العبارات التى قالها لها : لدى طائفة من الهموم تلهينى عن ابنك ، خلقت لمصير قاس واحتمال أيام مؤلمة ، صنعت لتدوسنى الكلاب وتطأنى أقدام الفرسان ، وتسحقنى الأحذية الثقيلة

« بحثت طويلاً عن ولدها ، بحثت طويلاً فلم تهتد إليه . وتقدم إليها القمر فانحنت أمامه وقالت له : أيها القمر ، أيها الكوكب الذى خلقك الله ، ألم تر ولدى ، تفاحتى الذهبية ، عصاى الفضية الصلبة؟

« أجابها القمر ، وهو الكوكب الذى خلقه الله ، وقال فى لباقة : لدى طائفة من الهموم تلهينى عن ابنك ، خلقت لمصير قاس واحتمال أيام مؤلمة ، يجب علىّ أن أهيم على وجهى فريداً الليل بطوله . يجب أن أنير فى ليالى البرد القاسية ، وأن أسهر ليالى الشتاء الطويلة ، وأن أختفى فى فصل الصيف

« بحثت عن ولدها ، بحثت طويلاً فلم تهتد إليه ، وتقدمت الشمس إليها ، فانحنت أمام الشمس وقالت لها : أيتها الشمس العزيزة التى خلقك الله ، ألم ترى ولدى ، تفاحتى الذهبية الثمينة ، عصاى الفضية الصلبة؟

« وكانت الشمس تعرف شيئاً عنه ، فأجابها كوكب النهار : أسفاً ، إن ابنك التاعس قد اختفى فاقداً الحياة فى نهر « تيونى » ذى المياه السوداء ، فى مياه « مانا » الأبدية ، لقد احتمله التيار إلى منازل « تيونى » فى وادى « مانالا ... »

يلاحظ على هذه المقطوعة أنها فى شكل أغان شعبية بما فيها من ترديد يزيد فى جمال الشعر ، وبما تعبر عنه من عواطف بدائية . والمعروف أن الأغانى الشعبية تعبر عن مشاغل الحياة وهمومها ، ولا تعرض للحياة بمعناها العام وما تبعثه فى النفوس من إحساس عنيف ، لأن الشعب لا يهتم إلا لما هو فيه ولأن التعبير عن الحياة بمعناها المطلق وليد المدنية والثقافة .

( للبحث صلة ) صبحى شيوبة

أيها المرضى بالبول السكرى لا يحق لكم أن تيأسوا من شفائكم
(نتيكومان)
جربوه قبل أن تجربوا الدواء الجديد
هذا الدواء قضى على أحسن الاكتشافات العلمية المماثلة بشهادة المرضى
اطلبوا البيانات اللازمة مجاناً من جالانهو زمان ص. ب ٢١٠٥ بمصر